الحلقة الرابعة والعشرون

العبادات شرعت لأهداف

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون : أيتها الأخوات المؤمنات :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد : فرب العزة - جل جلاله - ، لم يأمرنا بأداء العبادات عبثا ، وحاشا لله أن يكون كذلك ، وإنما هناك حكم وأهداف ، وكلها لمصلحة الإنسان، إنه - سبحانه - شرع العبادات وفرض علينا أداءها ، ليعلمنا مكارم الأخلاق ويعمقها في قلوبنا ، ولكي نستفيد من كل جانب من جوانبها ، ونتأثر بكل زاوية من زواياها، كان التنويع في العبادات ، من صلاة وزكاة وصوم وحج وغير ذلك . وللصوم أثر كبير في غرس فضيلة الخوف من الله تعالى ، وتنبيه الصائم إلى أن الله مطلع عليه، عالم بحركاته وسكناته ، وأن كل ما يصدر منه أو يضمره مسجل عليه، سواء كان ذلك ليلا أو نهارا ، سرا أو جهرا.

ورب العزة مع الإنسان أينما كان وحيثما وجد ، في أي زمان أو مكان ، وصدق سبحانه حيث قال : ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ (الحديد : ٤).

تلك هي الحقيقة التي جاء بها كتاب الله تعالى ، ومن ذلك أن تكون هناك يقظة قلبية ، وخوف من الله ، الذي يعلم السر والنجوى .

ومن هنا نجد الصائم لا يجرؤ على إفساد صومه ، ولا يستطيع أن يتناول شيئا من الطعام

والشراب في خلوته ، ولا تطاوعه نفسه أن يمد يده إلى شيء من الفواكه المحببة إلى النفس بعيدا عن أعين الناس ، إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من ذلك ، وما السر الذي جعله يحجم عن تناول شيء في خلوته وهو صائم ؟ وما السبب الذي قيده بهذه الصورة دون ضغوط عليه ؟ إن السر في ذلك هو الخوف من الله العالم بكل شيء ، والسبب هو الرهبة من الخالق الذي يحاسب ويجازى ، فالخوف من الله حاجز يحول بين الإنسان وبين ما يشتهى ، ويمنعه من تناول ما يتعارض مع صومه ، ويبعده عن الانزلاق في مهاوي الرذيلة ، ويدفعه إلى السمو والنبل والفضائل ، وينقله من دنيا المعاصي إلى دنيا الطاعة ، ومن جو الأدران إلى جو العبادة ، ويقوده إلى الصراط المستقيم ، وفى هذا السلوك الإيماني حسن المستقبل دنيا وأخرى .

والخوف من الله - تعالى - ثمرة من ثمار العبادة ، ويظهر جليا عند أداء فريضة الصيام ، ويتمثل واضحا في موقف الصائم من الامتناع عما لذ وطاب ، فمن من الناس يراه إذا تناول الطعام أو الشراب أو الفاكهة وهو في داره ؟ ومن ينظر إليه من الخلق إذا اتصل بزوجته ومنزله مغلق ؟ انه لا أحد يراه من الناس مادام الأمر كذلك ، وهو في أمان منهم ومن نقد المجتمع له ، وهو – والحال هذه - يستطيع أن يفعل أي شيء مادام بعيدا عن أعين الناس ولكنه لا يفعل ، ولا يجرؤ على أن يفعل.

وإذاً لابد من وجود شيء آخر هو السبب في منعه من تناول فطره حين صيامه وإغلاق منزله عليه ، ويتمثل ذلك في الخوف من الله تعالى ، الخوف الذي يجتث من نفسه أدران الشر ، ويأخذ بيده إلى الطريق السوي ... إن الخوف من الله شعار الصالحين ، وقرين المهتدين ، وقائد المؤمنين إلى أقوم طريق ، وهو الهادي قلوب الحائرين ، والسبيل إلى سعادة المؤمنين . وبالخوف من الله والخشية منه - جل شأنه - والبعد عن المساوئ ، والفرار من ذل المعاصي ،

وصحوة القلب وطهارة النفس وسمو الروح ، يكون المستقبل المشرق ، والحياة الأخروية الهانئة ، والرضا الرباني العظيم ، ويكون المصير الجنة والنعيم ، وتكون النجاة من عذاب رب العالمين ، مصداق ذلك من كتاب الله تعالى :

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى﴾

(النازعات : ٤٠ - ٤١).

تلكم هي النتيجة الطيبة ، وهذه هي النهاية السعيدة ، وذلكم هو المستقبل الباسم المشرق ، والنجاح العظيم المشرّف ، لأولئكم الذين يخشون ربهم، ويخافون الله حق الخوف ، وصدق رب العزة حيث قال : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير ﴾ (الملك : ١٢).

إنه لأعظم مستقبل ، وإنها لأسمى نتيجة ، فمن خاف الله سلم ونجا ، ومن بعد عن الذنب غنم وأجر ، ومن خشي ربه استقام واهتدى .. إن الخائف من ربه ، يعلم أن اليوم عمل ولا حساب ، وأنّ في الآخرة حسابا وليس فيها عمل ، وهو يدرك أن النفس أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشهوات ، فقاوم نزعاتها ووقف جادا أمام ميولها ، وهو يعلم أن الشيطان عدو مبين للإنسان ، فتحداه وقهره ، ونازله وأفسد عليه خططه، وهو بخوفه من ربه، لم يترك للدنيا فرصة لتفتنه بزخارفها ولم يمكنها من السيطرة عليه بمباهجها ، وشق طريقه في الحياة مستقيما غير معوج ، مهتديا بهدى الدين ، مستنيرا بنور الإيمان ، بعيدا عن الآثام ، متنكبا طريق الشيطان ، والخائف من ربه يتزود دائما بصالح الأعمال ، ويرضى ربه بأفضل الحلال ، ويتخذ دنياه مزرعة خير للآخرة . إن مثل هذا الإنسان يكون في أمن يوم القيامة ، وبعد عن غضب الله وعقابه ، وفي موكب ملائكي نوراني يزف مع أمثاله إلى الجنة وما فيها من نعيم أبدي ، وعز سرمدي، ورضا رباني ، وحياة لا كدر فيها ، ولا مسئوليات تثقل كاهله .

أيها الإخوة والأخوات : هذا هو الصوم ، إنه وسيلة إلى الخوف من الله ، وبه يكون الصائم ذا خشية من خالقه ، ورهبة من ربه ، ومتي وصل المسلم إلى هذه المرتبة ، مرتبة الخوف والرهبة ، نال الرضا الإلهي ، والأمن الأخروي ، وفاز بجنة فيها من ألوان النعيم ما تشتهي الأنفس وتلذ به الأعين ، وكان يوم القيامة في ظل الرحمة الربانية ، فلا غضب من الله ينزل به ، ولا أهوال تزعجه ، ولا كروب تكدره ، ولا خوف من سوء مصير .

أما الذي لا يخاف ربه في دنياه ، فويل له وغضب من الله عليه ، ولن يجد في الآخرة ما يجده الخائف من ربه ، من حسن المستقبل ، وسمو المكانة ، والنجاح العظيم في أخراه ، لأن الله تعالي لا يجمع علي عبده بين خوفين ولا آمنين، إنه خوف في الدنيا يقابله أمن في الآخرة ، وأمن في الدنيا يقابله خوف في الآخرة ، وتلك نتيجة لا تتخلف ، وإنها قضية ذات مقدمة ونتيجة ، فالعارف بربه خائف ، وكل خائف آمن والعارف بربه الخائف من خالقه آمن ، والعكس بالعكس ، أيها الإخوة الصائمون : أيتها الأخوات الصائمات : من عرف أن الله مطلع عليه ، عالم بجليات الأمور ودقائقها ، وأنه عزيز ذو انتقام، غني عن كل ما ومن سواه ، وأنه محاسب كل إنسان علي ما حدث من تجاوزات في دنياه ، من عرف ذلك بحق، فإنه لن يقترف ذنبا ، ولن يقدم علي معصية وسيتجه في دنياه اتجاها خيراً ، يرضي عنه الله ، ويجازي عليه الجزاء العظيم ، والله نسأل أن نكون من الذين يخشون ربهم ويخافون خالقهم ، وينأون عن السيئات، والله الموفق .